قضايا التخييل الذاتي النسائي/ حوار مفتوح بين الذات و الآخر

د. أوريدة عبود ، أستاذة محاضرة "أ"
جامعة مولود مولود معمري تيزي وزو/ الجزائر
كلية الآداب و اللغات /مخبر تحليل الخطاب
abboudourida@yahoo.fr

Abstract

This study seeks to demonstrate the importance of writing in women's writings as an act of discovery and overcoming the boundaries of now and happiness, especially since it gives the woman writer countless possibilities for the crystallization of her creative imagination. The more creative the narrative reveals the subjective experience of the creative woman with all her frustrations and all Her humanity, which requires the writer to be a conscious trial of the relations between women and the other only and her artistic vision of existence is deeper, because creative disclosure cannot be done in isolation from the parallel detection of different interactions in their relationships with the other, which helps to release the self writer and recipient alike To make creativity more free and based on the worlds that the creative self penetrates to organize its ideological, aesthetic and humanistic system

Keywords: women, passifals, identity, self, reality.

Résumé

Cette étude vise à démontrer l'importance de l'écriture dans les écrits des femmes comme un acte de découverte et de surmonter les limites de maintenant et le bonheur, d'autant plus qu'il donne à la femme écrivain d'innombrables possibilités pour la cristallisation de son imagination créatrice. le récit plus créatif révèle l'expérience subjective de la femme créative avec toutes ses frustrations et tous les Son humanité, qui exige que l'écrivain soit un procès conscient des relations entre les femmes et l'autre seulement et sa vision artistique de l'existence est plus profonde, parce que la divulgation créative ne peut pas se faire isolément de la détection parallèle de différentes interactions dans leurs relations avec l'autre, ce qui aide à libérer l'auto-écrivain et le destinataire comme Pour rendre la créativité plus libre et basée sur les mondes que l'individu créatif pénètre pour organiser son système idéologique, esthétique et humaniste.

Mots-clés: femmes, passifals, identité, auto, réalité

ملخص :

تسعى هذه الدراسة إلى بيان أهمية التخييل في الكتابة النسائية باعتباره فعل اكتشاف وتجاوز لحدود الآن و الهنا،خاصة أنه يمنح للمرأة الكاتبة إمكانات لا حصر لها لبلورة متخيلها الإبداعي.فكلما انصهرا الإبداع الروائي بالتجربة الذاتية للمرأة المبدعة بكل احباطاتها وبكل إنسانياتها،التي تستلزم من الكاتبة محاكمة واعية للعلاقات القائمة بين المرأة والآخر، إلا وكانت رؤيتها الفنيــة للوجود أعمق ،ذلك أن البوح الإبداعي لا يمكن أن يتم في معزل عن كشف مواز لمختلف تمظهراته في علاقاتها بالأخر مما يساعد على انعتاق الذات الكاتبة و المتلقية على حد سواء ليجعل الإبداع أكثر حرية وانطلاقا نحو عوالم تخترقها الذات المبدعة ،لتــنظم عبرها منظومتها الإيديولوجية والجمالية والإنسانية.

الكلمات المفتاحية : المرأة ،التخييل ،الهوية،الذات ، الواقع.

مقدمة

استمد التخييل الذاتي من جنس الرواية مشروعية التخييل بكل ما يتيحه هذا الأخير من حرية مطلقة في بناء الأحداث والشخصيات والفضاء المكاني، واستمد من جنس السيرة مشروعية الذات والمرجع، إذ تتأسس الذات محوريّا لتصير القطب والمناط والمبتدأ والمنتهي تبصر العالم وتستعيد الأحداث السابقة، تحللها وتعلق عليها وتعيد تأويل تفاصيلها، وفق متطورها الراهن من خبرات الحياة والتجارب الثقافية.

مازال مفهوم التخييل الذاتي في البداية ولم يتحقق أي تراكم في هذا المجال، لكن ما يلاحظ أن المرأة الكاتبة اتجهت في كتاباتها للتخييل الذاتي للتعبير عن همومها ومعاناتها ومطامحها. تكتب المرأة: " لتغلف جسدها وتجعله ينفلت من الشهوية، لتعطي للنّص المكتوب لذّته الشبقيّة فوق الجسد السّافل، وتستعيد تحرّرها عبر دفع الرجل إلى الإنصات إلى جسد الكتابة، وتعرض الجسد الأنثوي للانمحاء داخل فضاء رمزي لا يتمركز بالحركة. إن المرأة بأساليب التمويه التي تلصقها بجسدها تكتب مباشرة على جسدها إنها ترسم ورسمها تكثيف لرغبتها، والرجل تتولد له حساسية خاصّة نحو هذه الرموز"(1).

فالمرحلة التي تكتب فيها المرأة النّص الأدبي بمنظار جسدها تستقي نزعتها من المرحلة الرومانسية للأدب، لكن تبقى الخاصية المهيمنة على الكتابة النسائية هي حضور الأنا للإحالة إلى هوية دائمة الغياب.

إن استراتيجية الكتابة النسائية انطلاقا من الوعي الثقافي بها كإشكالية مطروحة على النقد الحديث ومن خلال ترصد لبعض الخصائص المميزة له كظاهرة أدبية، ذات خصوصية من حيث الطرح الموضوعاتي لا يضع الأدبيات في مرتبة أقل من الرجل بل إنّ التّفرد الذي تمتاز به الكاتبة يكمن في التعبير عن قضاياها الخاصة و خلقها للغتها الخاصة أيضا رغم أن اللغة التي تكتب بها غير محايدة.لهذا يطرح بحثنا أسئلة جوهرية:

لماذا تلجأ المرأة للتخييل الذاتي؟

ماهي القضايا التي تطرحها المرأة من خلال التخييل؟

كيف ينبغي أن نتعامل مع نصوصها الإبداعية؟

1- واقع الذات المتكلمة/ أفق رؤيوي آخر:

تعتبر الكتابة عن الذات من أكثر الأنواع الأدبية ديموقراطية وذلك لكونها ميسرة لأي إنسان يحسن الكتابة فكل البشر على اختلاف مستوياتهم الثقافية والتعليمية، ينخرطون في مشروع الكتابة عن ذواتهم بتلقائية وعفوية، لكن تبقى المرأة الكاتبة هي التي تحسن الكتابة عن الذات حين تجبر ذاكرتها على طرح مخزونها بالتداعي: "الذي يغلب على دلالة الخطاب النسوي وسياقه، فيجعل حركة السّرد ضمن الحركة الدائرية من الذات إلى الذات، ومن الخارج إلى حميميه الداخل، وقد تهاجر بنا نحو الغياب، وهذه الحركة الدائرية تلغي الزمان والمكان، فتبدو حركية الرواية ضمن زمن سيكولوجي خاص، يعطي للغة قوة تعبيرية ومضامين مشحونة، كما أن الاتصال والانفصال بين الواقعي والمتخيل يدفع بحركية السرد على ممارسة سطوتها وقوتها"[2].

تتوغل المرأة الكاتبة داخل الجسد والروح والذاكرة لتقدم للمتلقي تفاصيل عن الماضي وصورة عن الحاضر، وأسئلة عن المستقبل مما يجعل السرد النسوي يهيمن عليه الحوار الداخلي: "فنلمس انشطار الذات المتكلمة إلى ذاتين، ذات محددة وفق شروط الهوية، وما هو متعارف عليه، وذات متكملة تخوض مشروع التغيير من خلال أسلوب التّداعيات واستحضار صور الماضي[3].

تنشطر ذات المرأة و تتشظى، تحب وتكره في نفس الوقت، تكره ذاتها وتحب ذات الآخر المتمثلة في الرجل، تقلده ولا تعترف بذلك تسانده وتومىء إلى ذلك، تناقضه ولا تقصد ذلك، فتكتب عن ذاتها عله يفهم ما بداخلها من مشاعر، ثم تنسى كل ذلك فتجنح نحو تخييل ما لم تستطع تحقيقه على أرض الواقع.

لعل انطلاق كتابة المرأة من محاولة تأكيد الحضور وعرض الخطاب المتجه نحو الآخر المفعم بالكثير من الهواجس وتفاصيل العالم الأنثوي الخاصّ يمثل انعتاقا من أوحال المجتمع الناجم من محاولة كسر حواجز الصمت المتعلق بالذات، وهنا ترسم معالم رؤية الآخر وتنضج بواطن المسكوت عنه في التجربة الإبداعية، وتخرج من دائرة متقوقعة مغلقة باعثة للخمول إلى فضاء لا يؤمن بحتمية القهر والصمت، فهي تناشد تحقيق الهوية وتستعيد في ذلك رصد جزئيات العالم الأنثوي لتجسّد من خلاله استلاب الواقع في حياة المرأة وهامشياتها وعبثية وجودها في دائرة الانغلاق.

تحاول المرأة المبدعة أن تقبض على تفاصيل الأنثى، وتنسج الحبكة الأساسية للحدث بالرجوع لمرتكزات الذات، التي يتضافر في تصويرها الواقع والتخييل، لتفتح نصّها على أفق رؤيوي قادر على تحقيق الذات الأنثوية.

تسعى المرأة المبدعة الكاتبة لإيجاد مساحة تفاعل بينها وبين المجتمع، تغادر بها نمطية التواري خلف أطوار الاستسلام لشروط التسلط والقهر، إنها تتدخل لصياغة ذات بديلة بعدما استحوذ المجتمع على ذاتها، فاختزلها في الغواية والاغراء. لقد أدركت تمام الإدراك أنها:" كائن إنساني تصطفي ذاتها في عالم حرص الرجال فيه على أن تلعب دور الجنس الآخر" [4]

لا يخفى على أحد ان الإبداع والكتابة تولّدان الحياة من ظلمة القهر والغياب: "والرواية تحقق للمرأة المبدعة شيئا من تشكيل ذاتها الحقيقة داخل فعل الكتابة، بينما الرّجل لا يرى المرأة فكرا واعيا بل يراها جسدا ناميّا، وهذا ما تؤكده جلّ الأعمال الإبداعية الذّكورية الذي فرض على المرأة الاختفاء وراء جدار الذات، وما كرسه التراث في التنقيص من شأن المرأة وتغييبها وراء حجب كثيفة مطلقا العنان للفحولة تتكلم بلسان المرأة ، ومن هنا كان النص الذي تمارسه الأنثى في علاقة مستمرة بين ثنائيات مختلفة ومؤتلفة كالحاضر والغائب، الموت والحياة، العدم والوجود"[5]

فالوقوف على واقع الذات المتكلمة ومحاولة تغييره لن يكون إلاّ بالكتابة، الكتابة عن الذكريات والأزمات والانتهاكات، فالكتابة تصنع الوجود وتحقق للذات كينونتها " الكتابة وحدها تستطيع أن تردم الهوة، أن تسد الفراغ وأن تقوم مقام المرأة" [6]، إنّها دافع لمغادرة الأسر والقهر إلى حياة أكثر جدة وتجديدا.

تكتب المرأة حكايتها ومأساتها وتجربتها من الآخر، تجعل الكتابة سفينة للنجاة ، وبهذا تنطلق المرأة من الذات التي تقتات من الشعور الملامس للفقدان والغياب في متاهات الوجود لتنقبّ على جذر التكون، فتبعث روحه من الرماد تغيثه من غمام الاحتراق، وتخلصه من السواد فتصبه على جسد البياض[7] .

ومهما تكن مواقفنا واقتناعاتنا الجمالية أو الايديولوجية، فإن الكتابة النسائية حتى وإن كانت حوارا مفتوحا بين الظاهر والباطن، وبين الذات والآخر ونزوعا لخرق الجماليات القائمة وتجاوز المؤتلف وإنتاج المختلف لا يمكن أن تكون إلاّ امتدادا وجوديا لواقع الذات المتكلمة، الأمر الذي يحتم علينا أن نتعامل مع النصوص الأدبية على أنها تجارب فنية جمالية خاصة لكنها في الآن نفسه نتاج تجارب إنسانية قائمة على الحقيقة أو التخييل تنزع باستمرار لتحول الصراخ كلاما، وتجعل الصمت صراخا[8]

حينما ترى المرأة الواقع يتنكر لها تكتب لتعبر عن ذاتها وواقعها، فالكتابة ولادة جديدة، إنها عملية ولادة الذات بالذات، وهي معرفة الذّات على مستوى آخر، هي ذاكرة للماضي، وإدراك للحاضر، وتفكير في المستقبل، تفكير في ذاتها التي رسمت ملامحها ومجدتها، لتنسخها في الذاكرة التي رسمتها من التخييل، فجعلتها حقيقية تبلغ به سنام الرغبة وتعوض ما غاب عنها أو سرق منها منذ عصور.

2- مراجعة الماضي الفردي/سرد لتاريخ الذات:

يتشكل بداخل النص السير الذاتي هوية الذات، بمعنى وجودها الذي يرسم كيانها الورقي، فيتحول النص السير ذاتي حينها الى سرد لقصة حياة، محطة تصل لحظتين إحداهما تحيل على لحظة الكتابة، وتحيل ثانيهما على ماض

الكاتب نفسه فتعدو هذه اللحظة وصلا بين زمنين زمن مضى و زمن حاضر يمثل حاضر الكتابة ومنطلق البداية في رحلة سرد تاريخ الذات وتحولاته.

إن الإحساس بثراء الحياة وامتدادها التاريخي، يتجلى كتابة بواسطة اللغة وتراكيبها ويجعل من السرد قبل أن يكون تقنية من تقنيات الكتابة سردا لحياة الذات في سيرورتها وتراتبية تجاربها، فالكاتب يلجأ لربط الاسترجاع بمستوى الزمن السردي الحاضر بوسائل تتمثل في الاعتماد على الذاكرة لاستثارة ذكريات الماضي، واستخدام المونولوج في عملية الاسترجاع،و اللجوء إلى اسلوب المذكرات والاعترافات لإضاءة جوانب مهمة من الشخصية الماضية.

ومراجعة الماضي عملية تستلزم مجهودا عقليا قد يطول الوصول إليه في بعض الحالات وعند استحضار الماضي تتسارع إلى المخيلة ذكريات وخيالات وصور ورموز تكون مختزنة في الوعي واللاوعي [9] .

ولكي تنشط الذاكرة في استعادة الماضي لابد من الاستعانة بشيء من الخيال المتولد في المخيلة الكامنة في أعماق كل منا، وقد يفهم البعض أن المخيلة قد تسمح لفضاء خيالنا أن يبتدع أحداثا ووقائع لم تقع لنا، فالمخيلة التي تفتح فضاء خيالنا لا تعنى خلق أحداث وشخصيات لا وجود لها في الواقع، إنما تضيء بعض الجوانب التي غشيها ضباب الذاكرة، فحجبها عن الإدراك أو لطرح بعض الاستفسارات عن بعض الأمور التي تلبدت من حولها الغيوم في أعماق الذاكرة.

تستعين المرأة الكاتبة بالتخييل لتعيد رسم صورة الماضي لتحلق في فضاءات رحبة ولتعيش الواقع كما يجب أن يعاش، فمصدر السيرة الذاتية الحقيقي والمؤثر في القارئ ينبع من المنهل العذب لينبوع الذاكرة النابضة بالخيال الخصب، والرؤية المتجددة للواقع وطموحات المستقبل فالماضي المعتمد على مزج الحقيقة بالخيال هي الأرض الخصبة التي تنبت فيها السيرة بسلاسة لتكون قادرة على نقل تجربة صاحبها للأخرين، ولتشد انتباه القارئ ليتعاطف معها أو ينفر منها.

إن وعي المرأة لطبيعة ماضيها وصراعها مع الحياة وقدرتها على تصويره ونجاحها في إثارة مشاعر المتلقي وتحفيزه على المشاركة في تلك التجربة من الأمور التي تسهم في بقاء السيرة الذاتية ونجاحها لأن:" حظ الترجمة من البقاء يرجع في الغالب إلى مدى ما تنقله لنا من إحساس كاتبها بالصراع الذي يثير في نفوسنا ألوانا من المشاعر تحفزنا على مشاركته تجاربه وخبراته وعلى تعاطفنا من مواقفه وأفعاله"[10]

تلجأ المرأة المبدعة للتخييل الذاتي كي تفرغ ما بداخلها من قلق وحيرة واضطراب وصراع، فالتخييل الذاتي بمثابة النافذة التي تلقي من خلالها ما بها من اختلالات، فهو يحقق لها التوافق والاتزان، الذي ييسر لها أن تعيش حياتها الداخلية والخارجية من خلال ذكرياتها والكشف عن حياتها الباطنية، وتأمل ذاتها العميقة بما فيها من ثراء داخلي يمثل عالمها الصغير[11] .

فالماضي هو السّمة الأساسية لأي عمل وهو:" التدفق الحركي المتصاعد الذي يعمل على تجميع العناصر الدرامية المتفرقة والمتباعدة . الملاحظ أن تذكر المرأة الكاتبة لماضيها كله أمر يكاد يكون مستحيلا، تصبح الأحداث مبتورة، وهنا يتدخل التخييل ليملأ فراغات الأحداث التي تذكرها خاصة البعيدة زمنيا كأيام الطفولة[12]، فالذاكرة عندما تعلن فشلها ينهض التخييل بديلا منتجا ليؤثث ما مزقته الذاكرة[13] .تتعمد الكاتبة إلى مزج الواقع من التخييل من خلال خلق أحداث جانبية، وابتكار أسماء جديدة للشخصيات، والاستعانة بأوصاف تختلف عن تلك الواقعية لتوهم القارئ أن هناك تباينا بين الشخصيات الواقعية والمبتكرة[14] .

أصبح مراجعة الماضي الفردي أمرا لا مفر منه في دراسة السرد النسائي الذي يعتمد أكثر ما يعتمد على الذاكرة من أجل الانطواء على الداخل الأنثوي والهرب من حاضر عنيف. ومن أجل استرجاع أحداث مضت كان لابد من إلقاء الضوء عليها حتى يكتمل محكي الحياة. يقول برادة في هذا الصدد:" إن كتابة السيرة الذاتية، هي محاولة الإمساك

بشخصية صاحبها في كليتها، وفي حركة موجزة وتركيبة للأنا، وللتعرف على السيرة الذاتية، لا بد من احتلال محكي الطفولة لمكانة دالة داخل المحكي، أو بصفة عامة التطرق إلى مرحلة النشأة في حياة الشخصية"[15]،

إن العودة إلى الماضي ومراجعته تعتبر حتمية في كل كتابة عن الذات وربما هذا يعد من أهم ما يميز الكتابة النسائية، ثم إن الزمن بكل ما ينطوي عليه من إشكالات وتدخلات يعتبر من الركائز الأساسية في خلق النص السير ذاتي، والماضي باعتباره البنية الزمنية الأساسية في السيرة، تقدم الحوادث المطلوبة استخدامها مجردة، وتقوم الذاكرة باستلام هذه الحوادث بعد تنقيتها بالزيادة أو النقصان أو بالتقديم و التأخير:" فما يميز السيرة الذاتية شكلا عن التنويعات المتفرغة منها (اليوميات، المذكرات، الصورة الشخصية، الاعترافات) هو أنها تستعيد حياة كاتبها اعتمادا على الذاكرة واستحضار الماضي مع ما يقترن بذلك من انتقاء وحذف وتخييل"[16]

تمارس الكاتبة إذن حقها في الانتقاء والحذر والتركيب والتخييل معرضة عن مقتضيات السيرة الذاتية المألوفة، وهذا البناء الروائي يتيح لها بأن تنطلق من وعيها الحاضر وتضع مسافة بينها وبين مرحلة تسمح لها بأن تتدخل وتدرس ملاحظاتها وتعليقاتها، وعلى هذا النحو:" تأخذ كتابة الذاكرة مداها عبر بنية حلزونية مفتوحة تجعل من الرواية فضاء يستجمع التفاصيل والتذكارات والنبضات، ليرسم علائق الناس مع أنفسهم ومع الآخرين"[17]

يقول محمد الداهي: " هناك أمور تغيب تماما عن الذاكرة، وتغشاها غشاوة النسيان (النسان الطبيعي) وهناك أمور يتقصد المبدع نسيانها وكتمانها (النسيان المتعمد) ويمارس رقابته الطبيعية عليها، لأنها تمس كيانه الطبيعي، وقد تؤدي غيره ممن شاطره قسطا من حياته"[18]. هذه الأسباب وغيرها هي التي جعلت المرأة الكاتبة تلجأ إلى التخييل لسد فراغات الماضي والذاكرة حتى يكتمل السرد، ثم إن تعالق المستوى التخييلي مع المستوى المرجعي لا يعود سببه الوحيد إلى النسيان الطبيعي في السرد النسائي، وإنما تتقصد المرأة الكاتبة حذف بعض الحقائق المتعلقة بحياتها الشّخصيّة وهو الأمر الذّي أكدّه أندريه موروا بأن:" السيرة الذاتية لا تحرف فقط من خلال النسيان إنما تحرف كذلك من خلال التأثير الطبيعي للرقيب الذي تمارسه الروح على الأشياء التي لا تستريح لها، فنحن نسترجع الذكريات التي يلذ لنا استرجاعها، ونحن نلقي إلى النسيان تلك التي تجرحنا، ونحن نحورها بوعي، ونصنع منها قصة اكثر جمالا وحيوية واثارة، مما كانت عليه الأحداث الواقعية، والنجاح الذي تلقاه القصة المحوّرة يشجعنا على أن ننمقها، و شيئا فشيئا تصير هذه القصة هي مرجع ذكرياتنا"[19]

هكذا إذن تراجع المرأة ماضيها وتحتمي بذاكرتها، وبما اختزنته من لحظات مميزة وتلجأ إلى قذف ذاتها وسط مواقف ومشاهد يمتزج الواقع بالخيال، وترتدي فيها الشّخوص أقنعة تتيح لها أن تستوطن ذواتا متعددة تخرجها من الحيز الضيق إلى معانقة ما هو أوسع، إنه نوع من التخييل الذاتي الذي تتشبث به الكاتبة لتعلي من شأن ذاتها القلقة المتفردة.

3- الهوية الأنثوية/محاولة لتهشيم الذكورة:

تشعبت الكتابة النسائية بتجارب مليئة بوعي المرأة المأساوي ابتداء من اللاوعي المتشكل في تجربة القتل غسلا للعار ومرورا بوأد البنات، والسبي، واستعباد النساء وتحويل الجسد للمتعة في سياق الجواري، وإجبارها على الزواج، ومطالبتها بإنجاب صبي وإدانتها لإنجاب البنت، وهجرها وضربها، والزواج عليها وتطليقها وحجبها. كل هذه الأمور وغيرها شكلت الصياغات المحورية والقضايا الرئيسية داخل الكتابة النسائية المتحولة من نمط الكتابة التقليدية المتعايشة مع كتابة الرجل إلى نمط جديد يبحث عن الحرية من خلال التمرد والرفض وإثبات الهوية الأنثوية.

وعلى هذا الأساس بدأت المرأة الكاتبة تبحث عن شكل نظري في الكتابة، تسعى إلى التنميط على مستويات الشخصية والبيئة واللغة والعناصر المشكلة لجوهرية أية كتابة ،ولكن من منظور نسائي مختلف تكون فيه المرأة إنسانا يتشكل في أطر إنسانية ترفض العبودية وعيا وتطبيقا.

في هذا العصر الذي احتل فيه التواجد والحضور المعرفي والثقافي دور السطوة والقوة، واتخذت أشكاله العلمية والمعرفية والثقافية هوية الريادة، برزت المرأة كندّ لا يستهان به في كل المجالات المعرفية لتحديد مكانتها وهويتها الإنسانية بعيدا عن التقسيم الجنسي، وكانت الهوية الأدبية للمرأة شكلا من أشكال الحضور والتواجد الانساني الحقيقي الذي يعزز كينونة المرأة.

بدأت المرأة في ترسم أبعاد وجودها الثقافي والحضاري في مختلف الميادين لتشكّل منجزا حضاريا ومشهدا ثقافيّا، يسير موازيا إلى حدّ ما مع الأدب الذكوري، وأصبحت ثقافة المرأة دلالة حية وحقيقية على ثقافة المجتمع، وتجاوزت المرأة مرحلة التثاقف وعلت الكثيرات على الرجال سواء في مجال الأدب أو سائر فنون الثقافة والمعرفة.

انطلقت المرأة المبدعة ترسم مفرداتها الخاصة في كل مكان وبكل خصوصية، واندمجت بمعطيات الحضارة الإنسانية، وهي تسير في خطاها العلمية والمعرفية بشكل يبشر بالخير، ذلك أن التشكيل الفكري يتأثر أولا وأخيرا بالأسس الحضارية ومدى الالتحام بآليات الثقافة وأبعادها ووسائطها والتفاعل مع أشكالها الخارجية والداخلية، كل هذا سيروض العقول ويبلور الأفكار يرقى بالهوية الأنثوية إلى مستوى التكوين الناضج.

تعمل المرأة على كشف أنوثتها وهويتها كخطاب ورؤيا ولغة كي تستعيد قوة الوجود لتكون خطابا تتجدد فيه المحبة والقوة والخيال واللذة، باعتبار هذه الأنوثة نزوعا عميقا نحو أنسنه العالم الذي يحيل الذات الأنثوية إلى ذات فاعلة خالقة.

تصارع المرأة المجتمع الذكوري المحمل بالسيطرة القامعة، ولهذا فهي تصارع داخليا طموحاتها الناجمة عن أزمة البحث عن الهوية الأنثوية المفقودة تحت سيطرة الآخر المغاير لجنسها، مما جعلها تشق طريقها مقتحمة بذلك عالم الكتابة الروائية لتثبت نفسها وتفجر مكبوتات كحل لتحقيق انتصاراتها، وتفريغ دواخلها نحو العالم الخارجي بالقلم والكلمة لأنها الأقدر على حمل لواء تحرير المرأة من الخضوع للسلطة الذكورية العاملة على اضطهاد النساء إنها، تسعى بشكل أو بآخر لرصد واقعها المهمش والمعتم.

تسعى المرأة جاهدة لتأكيد هويتها الأنثوية المتميزة الراغبة في التحرر من أشكال الاستلاب والاضطهاد والتهميش، التي كانت ولا تزال تتعرض لها المرأة الكاتبة خاصة من خلال كتابات الرجل الذي يسعى لتكريس تبعيتها له، وتفوقه عليها في جميع الميادين الأمر الذي جعلها تطرح قضاياها الخاصة بواسطة الحكي من أجل تغيير المنظومة الثقافية التقليدية ومحاولة إثبات ذات جديدة، لذا نجدها قد تطورت تطورا ملموسا في كتابتها الموضوعية فلم تعد تلك الرومانسية الحالمة التي سيطرت على أحاسيسها بقلمه، بل مست كتاباتها حياة المجتمع ككل، وخصوماته ومشاكله الاجتماعية والأسرية، وطرحت انشغالاتها عبر أعمال روائية مكثفة تتكئ على تقنيات سردية متنوعة، مستويات لغوية غنية، فمن مستوى اللغة المباشرة إلى مستوى اللغة الشعرية التعبيرية انتهاء بالمستوى الحلمي والأسطوري المكثف.

بدأت المرأة التغيير في البداية على مستوى الأفكار ليتم التغيير على مستوى الفعل والممارسة، ولهذا تدخل المرأة الكاتبة في معركة لإثبات أهمية ما تؤمن به من قضايا وأفكار وسلاحها في ذلك هو شخصيتها وطبيعتها المؤنثة، وكلما كتبت المرأة بوصفها امرأة كلما أصرّت على هويتها الأنثوية، لهذا نجد في المتون الحكائية للسرد النسائي محاور مشتركة لا تخرج عن مقاومة التسليط الاجتماعي والنفسي، وتشكيل النّص القريب من روح الحياة الواقعية، التي تعيشها المرأة، ومحاولة تهشيم الذكورة أو تعريتها وكشف غطاء هيمنتها المتسلطة، كما نجد أغلب المؤشرات الحكائية للمرأة حول الهوية والخصوصية المحلية ومحاولة وصف الفضاء الذي يحتويها، وهي في كل هذا تقرأ تضاريس هويتها وتبدع في سرد أسرارها.

تعليق ختامي: يخضع السرد الروائي عند المرأة المبدعة لخصوصيتها النسائية وتكوينها البيولوجي المختلف حيث يغلب دفق الأحاسيس والمشاعر فتوظف الحلم و الذاكرة في عالمها التخييلي، فتقترب من البوح والنجوى في تجديدها وتوليدها للأساليب والأنساق وفق لغة دافئة موحية فاتحة المجال للتخيل والتأمل.

تفوقت المرأة في التعبير عن قضاياها واهتماماتها فهي الأقدر على كشف عوالمها المتقلبة ومعاناتها التاريخيـــة. فكتابة المرأة قد يكون نقدا مريرا لأعراف اجتماعية وضعها الرجال، ورسالة مقاومة، ودفاعا ضد كــل أشـــكال القهــر المادي والمعنوي و قد يكون وتمزيقا للنفاق الاجتماعي وفضحا لازدواجية عرقلت إبداعها وحدّت من عطائها، لكــن في مطلق الحالات فإنّ خطابها محمل بقيم ورغبات تحاول من خلالها أن تمارس اختلافها كقضـــية وجوديـــة وثقافيـــة، كقدرة إنسانية لها خصائصها، وكعالم مستقل واسع له آفاقه ورؤاه، وليست مجرد خصوصية أنثوية.

تنفتح عوالم المرأة الكاتبة على فعل التّخييل، على أشكال أحاديثها العذبة ،على عالم مغروس في أنوية المجتمــع الذكوري التقليدي. يتجلى بحث المرأة عن اللذة من خلال البوح بألمها الذاتي عن طريق الوظيفة التعبيريـــة باســـتعمال ضمير المتكلم (أنا) الذي يشكل الخصوصية الأدبية للكتابة النسائية.

منح التخييل الذاتي للمرأة فسحة أن تتحدث وأن تكتب باطمئنان، ترتمي في أحضان عالم خيـــالي يمنحهـــا مـــا حرمت منه في الواقع، لتصنع حقيقة أخرى في عالم افتراضي من صنع خيالها،و تؤسس حوارا مفتوحا بين الظـــاهر و الباطن و بين الذات و الآخر.

الهوامش:

---

[1]-الأخضر بن السايح، نص المرأة وعنفوان الكتابة، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية خاص بأعمال الملتقى الدولي الكتابة النسوية، التلقي، الخطاب والتمثلات أيام 18-19 نوفمبر 2006، ص 24.

[2]- المرجع نفسه، ص 26.

[3] سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، مجموعة من أساتذة الجامعة، دار أسامة، دمشق، 1997، ص 11.

[4]- الأخضر بن سايح، نص المرأة وعنفوان الكتابة، ص 23.

[5]- حسن المودن، الرواية والتحليل النصي، قراءات من منظور التحليل النفسي، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2009، ص 122.

[6]- ينظر: المرجع نفسه، ص 144.

[7]- ينظر: حسن نجمي، الشاعر والتجربة، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص 21.

[8]- ينظر: عطية الله أحمد، الذاكرة والنسيان، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1980، ص 14.

[9]- عبد الدايم يحي، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص 152.

[10]- ينظر: شرف عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، الشركة العالمية المصرية لونجمانن ط1، 1992، ص 07.

[11]- محمد زكي العشماوي، أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية (الشعر، المسرح، القصة، النقد الأدبي) دار المعرفة، الاسكندرية 20002، ص 260.

[12] - ظر كمال الرياحي، حركة السرد ومناخاته واستراتيجيات التشكيل، ط1، دار مجدلاوي ص 178.

[13]ينظر: أحمد هيكل، الأدب القصصي والمسرحي، دار المعارف، ط4، مصر، 1983، ص 150.

[14] - ينظر فيليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، تر. وتقديم عمر حلي المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1994، ص66.

[15] - محمد برادة، الذات في السرد الروائي، دراسات نقدية، دار أزمنة للنشر، ط1، عمان، 2010، ص 89.

[16] - المرجع نفسه، ص 65.

[17] - محمد الداهي، الحقيقة الملتبسة، قراءة في أشكال الكتابة عن الذات، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط1، الدار البيضـــاء، المغرب، 2007، ص 178.

[18] - المرجع نفسه ص 17

[19] - أندريه موروا، فن التراجم والسير الذاتية، تر. وتقويم وتعليق أحمد درويش، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (المجلس الاعلى للثقافة، ط1، 1999، ص 103.